مجلة العلوم الإنسانية
ISSN 1112-9255
العدد الثامن / الجزء(2) – ديسمبر 2017

.OEB Univ. Publish. Co

مستويات اللغة الروائية في النقد الروائي عند عبد الملك مرتاض

Literary Levels in Novel Criticism by D'Abd al-Malik Murtath

د. بوبكر بوشيبة / أ.عيسى طهلال، جامعة الجلفة، الجزائر.

تاريخ التسليم: (2017/10/23)، تاريخ القبول: (2017/12/26)

ملخص :

تحاول هذه الدراسة الوقوف على تصور عبد الملك مرتاض للغة الرواية، انطلاقا من مركزيتها في العمل الروائي، في محاولته لتأسيس نظرية للرواية بملامح عربية، مستثمرا مختلف التصورات الفلسفية والاجتماعية واللّغوية، فيميز بين سمات اللغة الروائية، وبين مستوياتها، محاولا ربط التعدد اللغوي الحاصل في فضاء النص السردي، بالتفاوت الاجتماعي والثقافي بين شخصيات الرواية، وتفاوت الأحداث والأزمنة، وتفاوت النصوص التراثية المتخللة تضمينا أو تناصا، إلى جانب شهوة الإغراب والتجاوز التي تتملك السارد، لكنها تظل متجانسة متسقة في إطار اللغة الفصحى، إذ أنه يرفض استعمال العامية تحت إي طائل في العمل الروائي.

الكلمات المفتاحية: اللغة، اللغة الروائية، لغة السرد، التعدد اللغوي، الحوارية، اللغة الفصحى، اللغة العامية.

Abstract:

This study attempts to identify Abdul-Malik's conception of the novel language, based on its centrality in the novel work, in his attempt to establish a theory of the novel with Arab features, investing different philosophical, social and linguistic concepts, distinguishing between the characteristics of the narrative language and its levels, Textual narrative, social and cultural disparities between characters, the disparity of events and times, the variability of intertextual and intertwined texts, as well as the desire for alienation and transgression of the narrator, but they remain homogenous in the classical language. Vernacular under futile in novel work.

Key words: Language, narrative language, narrative language, multilingualism, dialogue, standard language, colloquial language

مقدمة:

إن اللغة في الخطاب الروائي الحديث، بفعل طاقته الاستيعابية وطبيعته الانفتاحية، تتعدى الوظيفة الابلاغية، والتواصلية، حين تتحول إلى فضاءٍ يستضيف جميع الأجناس، أدبية كانت أم غير أدبية، ليشكل من خلالها معماره اللّغوي المتفرد من جهة، ومنبرٍ يسمح لجميع فئات المجتمع أن تسمع صوتها من خلاله، وأن تعبر عن وعيها للعالم من حولها بلغتها من جهة أخرى.

من هذه الخصوصية الموسومة بالتّعدد والتنوع، ينطلق البحث، في تحديد مفاهيم (عبد الملك مرتاض) للغة الروائية ومستوياتها الأسلوبية بالارتكاز نظريا على جهوده في كتابه (نظرية الرّواية) القائم في الفصل المخصص للغة الروائية على مفهوم مركزي هو التّعدد اللّغوي وعلاقته بمتطلبات الكتابة الروائية الحديثة.

مركزية اللغة في الخطاب الروائي:

لا يمكننا تصور خطاب روائي بمعزل عن اللغة التي تعد من أكثر العناصر ثباتا والأكثر تسلطا في هذا الخطاب، حيث تعد اللغة مكونا رئيسيا في أي عمل أدبي، فهي الحامل لأنساقه والضامنة لتبليغه، واللغة في الرواية ليست مجرد انساق وظيفتها التبليغ، ولكنها وعاء يحوي مكونات عقلية ووجدانية ومعتقدات وخصوصيات الواقع الذي تنقله، إذ " أن منظومة لغوية ما تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم" (chaff, ,1967, pp292- 293)،

وبالتالي فالاهتمام باللغة بوصفها الحامل المادي لعناصر الرواية والمحدد لمنطلقات التفكير فيها والناقل للتصورات والتأويلات المضمنة لتفاصيل الزمان والمكان، يعني الاهتمام بالنسيج العام للرواية. فاللغة تتغلغل في الكيان الروائي العام وتصبغ بعده الواقعي الاجتماعي والحضاري الفكري، وتهبه خصوصيته وتفرده عن الكيانات الأدبية.

وعليه فانه لا يخفي دور اللغة في توجيه الفكر وإلزامه بالمفهوم الذي تراه للحقيقة بوصفها الهدف الأساسي للفكر، لذلك تتداخل اللغة والفكر، إذ أن الفكر " ليس شيئا أكثر من الكلام الذي بقي وراء الصوت (...) وعندما يفكر الإنسان فانه يتكلم بالرغم من أن هذا الكلام لا يسمع" (حماد، 1985، ص ص 20-21).

لذلك يجب توحيد العلاقة بين اللغة والمضمون إذ أن المضامين تنتج اللغة واللغة تنتج المضامين، في علاقة تبادلية، فاللغة تهب باقي عناصر الرواية حمولة دلالية وعاطفية، فتصبح عناصر السرد الروائي بفعل اللغة تحمل المضامين، وتعرض نفسها فاعلا إن على مستوى الإبداع أو على مستوى التلقي، " مما يعني انسراب النظام اللغوي في الوعي واللاوعي الجمعي، محددا سبل التفكير ومناهج المعاينة " (بني عامر، 2010، ص32).

وعليه، فإن تناول اللغة السردية في النقد الروائي أو (نظرية الرواية) يكتسي خصوصية، بفعل المنطلقات التي يمتح منها تصوراته، ورؤاه، وبفعل الغموض الذي يلف اللغة كنظام من جهة، وكعنصر متسلط ومركزي في الرواية يدير شبكة علائقية معقدة، تظهر في مستويات لغوية متعددة ومختلفة، ومتجانسة ومنسجمة في الآن ذاته، والتي تحاول الرواية من خلال اللغة دائما ربط ما هو تخييلي بما هو واقعي، وبما تمثله في ذاتها من كونها حاملاً للعناصر الروائية الأخرى كالشخصيات والزمان والمكان والحدث.

اللغة الروائية عند عبد الملك مرتاض:

وقبل الشروع في بسط هذه الرؤية، يتوجب أن نعرض في بادئ الأمر لبعض الأسس التي شكلت الدراسة النقدية المعمول بها في مقاربة النصوص الروائية.

فالبلاغة العربية القديمة انحصر جل اهتمامها في الشعر، لذا لم تكلف نفسها عناءً حين تناولت النصوص الروائية والقصصية بأدوات الشعر، فحاولت رصد المظاهر الجمالية الجزئية، " لكن سرعان ما خيبت الرواية كل آمالهم كونهم لم يجدو في لغة الرواية إشراقة العبارة نفسها التي عهدوها في الكتابة الشعرية أو في الخطب والرسائل الفنية" (لحميداني،، 1980، ص05)، كما أن تناول اللغة في النقد الغربي "في الحقب الكلاسيكية، لا يعني أي امتداد، أو أية كثافة خاصة بالإحساس، ولا يجسد أي تلاحم أو أي عالم منفصل، بل هو فقط انعطاف لتقنية لفظية تتمثل في "التعبير" وفقا لقواعد أكثر جمالا أي أكثر اجتماعية من قواعد الحديث" (بارت، 1980، ص80).

ثم كان الحقل اللساني، الذي تعامل مع اللغة على أنّها بناء مستقلّ، له أنساقه ودلالاته، وقوانينه وضوابطه المكتفية بنفسها والتّي يمكن أن تدرس دراسة علمية دقيقة، غير أن مثل هذه الدراسات لا يمكن إسقاطها على الفن الروائي، لذا بقيت محصورة في حقلها اللساني. " أول من نبه إلى أنّ النص، منظومة تحدّد وظيفة الأدوات الأدبية إذ أصبح موضوع الأدب على أيديهم هو" الأدبية"، وليس أي موضوع نفسي أو اجتماعي أو تاريخي.....إلخ" (بن ذريل، 2000، ص25).

أما الشكلانيين فقد كان الانطلاق النظري عندهم نابعا من التمييز بين اللغة اليومية واللغة الإبداعية، والتفريق بين مختلف وظائفهما فالمعنى أو الدلالة عامة إشكالية غير مطروحة لدى الشكلانيين فهم يتعاملون مع الحقائق اللغوية كمادة قابلة للتحليل وللتطبيق الإجرائي ويمكننا أن نعتبر هذا التفريق القائم بين اللغة المعيارية والأدبية هو نفسه تفريق اللسانيات بين اللغة والكلام.

وعلى اعتبار أن الرواية، تستقبل عناصر كثيرة، مثل: "سرد الكاتب، سرد الشخوص والشاهدين، وصف المناظر، والطبيعة، والأماكن والأشياء النادرة، والتوصيفات "المتكّلفة"، والاستطرادات المتوخية إتمام المواضيع ...الفلسفية والأخلاقية، وكذلك الأقوال المأثورة، والمحكيات المتخيلة (دراج، 2000، ص 140)، مما يجعل من العسير إمكانية التناول وفق المعايير التقليدية المعتمدة أساسا على فصل

مكونات الخطاب ومقاربتها بعيد عن الأطر الخارجية له، أو محاولة ربط الأسلوب بالمبدع وغيرها من الإجراءات.

وعليه فإن (عبد الملك مرتاض) يرفض بذلك النّظرة السائدة في مقاربة لغة الرّواية والقائمة أساسا على أسلوبية الأجناس المونولوجية كالشعر." إذ لطالما شكلت هذه النظرة سلطة نقدية خطرة، وجهت الباحثين في لغة الرّواية وجعلتهم يقعون أسرى تصورات ومفاهيم تجذرت في حقل الشعر

(كجنس أدبي) له قوانينه الأسلوبية وآفاقه التّخييلية، التّي تختلف بالضرورة عن الجنس الرّوائي" (بوعزة، 2012، ص12).

ولقد تجاوز (عبد الملك مرتاض) في نظره للغة الرواية كونها أداة تعبير، أو وسيلة تصوير، إلى البحث في المقومات اللغوية والإيحائية التي تشكل عالم النص وتسعى للكشف عن قضايا المتن الحكائي التي تتعدد بتعدد الرؤى، وتتنوع بتنوع أساليب اللغة الروائية وطرق التعامل معها .

ويسعى (عبد الملك مرتاض) إلى توطين مفهوم للغة الروائية يستوعب الواقع النصي بوحدات تركيبية، تتعدد في مجاله اللغوي، وتدعم تصوراته الاحتمالية، فاللغة في الرواية لها نظامها العلامي الخاص بها، الذي يميزها عن لغات الأجناس الأدبية الأخرى. وأبرز سمات هذا النظام العلامي: السمة الطبيعية، والسمة الاصطناعية (بوجملين، 2000، ص109).

1-مفهوم السمة الطبيعية:

وهي اللغة التبليغية التي يكون بثها دون قصد؛ كدكنة السماء الدالة على وشكان هطول المطر، وكبدء حرارة الجسم .. والسمة الطبيعية الثانية لمسية: إذ من العسير إدراك ارتفاع حرارة جسم ما دون لمسه، والسمة الطبيعية الأخرى سمعية باعتبار الاستقبال، وصوتية باعتبار الإرسال، وبصرية باعتبار الومضان (مرتاض، 1998، ص99).

وهي اللغة التي تقوم بوظيفة الإيصال، والتي تمثل حاملا ماديا لعناصر السرد، والتي تقتصر وظيفتها على التبليغ والإفادة، بحيث تحترم المواضعات اللغوية، ونظام اللغة لدى المتلقين، أو المجموعة الثقافية المستقبلة للنص الروائي، وهي في العادة لغة تقريرية معيارية تمكن السارد من الوصول إلى متلقيه، وتبليغه لفحوى الرسالة، دون أن يبذل جهدا يحول بينه وبين التلقي السليم للمضمون المراد إيصاله.

2-مفهوم السمة الاصطناعية:

التي تنصرف إلى كثير من المظاهر التعبيرية أو التبليغية التي منها اللغة اللفظية (أو الألفاظ)، والرسوم، والأشكال، والإشارات الصوتية (مرتاض، 1998، ص99).

وهي اللغة التي يعمد السارد إلى تجويدها، ويحرص على تجاوز الغرض التبيلغي فيها، والتي يرى (مرتاض) أنه لا يمكن الاصطلاح على المنجز أدبا بدونها، وعليه فالسارد مطالب بالاعتناء

بها، والتصرف بما تتيحه له من تراكيب وأساليب، وصور، وانزياحات، وله أن يحملها من الرموز والعاطفة ما يتواءم والمقام، والمضامين المراد تمريرها في ثنايا السرد. ولا يقتصر الأمر عند (مرتاض) على العلامات اللغوية، بل يرى أن للسارد أن يستعمل من العلامات غير اللغوية ما يرى أنه يؤدي الغرض، ويحمل الدلالة، ويخلق الدهشة عند المتلقي.

مستويات اللغة باعتبار الأدوار السردية:

لقد سبقت الإشارة إلى أن أسلوب الرّواية يشكل مركزا لغويا لمجموع الأساليب التّي يشتمل عليها المتن الرّوائي، علما أن هذه الأساليب هي نتاج خطابات الإنسان ضمنها، على اختلاف تمظهراته (السّارد /الرّاوي/الشّخصية...) لذا لابد أن نفهم تصنيف (عبد الملك مرتاض) لمستويات اللغة انطلاقا من أن:

- خطاب الشّخصية ليس منقول بطريقة حيادية، بل هو بالذات مشخص بطريقة فنية.
- يمكن لخطاب شخصية روائية أن يصبح أحد عوامل تصنيف اللّغة ومدخلا لها.
- لا يمكن إهمال أن الرواية، وآراء شخصياتها، وتصوراتهم، منتج إيديولوجي. (مرتاض، 1998، ص99-102)

ودون أن يتقاطع مع (ميخائيل باختين) فيما يصطلح عليه (تعدد الأصوات) أو مع (كريستيفا) فيما يعرف عندها بـ (الحوارية) ينطلق (عبد الملك مرتاض) في الحديث عن تعدد مستويات اللغة، رافضا لتعدد اللغات أو اللهجات في المتن الروائي، أو ما يعرف بتعدد الأصوات، يرى في ذلك أمرا متعلقا بتفاوت في مستويات اللغة، وأساليبها، ويرى (عبد الملك مرتاض) في لغة الرواية فسيفساء قائمة أساسا على التباين الاجتماعي من خلال استقطابها لمختلف مستويات اللغة والأساليب المتشكلة عبر تمظهرات عديدة قوامها تعدد المستويات اللّغوية للسارد وشخوصه بتعدد مشاربهم الاجتماعية والثقافية والنفسية والتاريخية والأيديولوجية (مرتاض، 1998، ص102).

إن هذا التعدد والتفاوت في لغة الأفراد نابع من اختلاف منطلقاتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها. مما يثري الفضاء النصي للرواية، فيتمظهر ذلك في تعدد مستويات اللغة، وتفاوت أساليبها، حيث تقوم اللغة بترجمة هذا الاختلاف الفكري والمرجعي وحتى الاجتماعي وتعرضه في مجموعة من المستويات اللغوية، والاستعمالات التي تمثل الوعي والرؤية والانتماء المختلف الخاص بكل شخصية روائية، إنها فسيفساء لغوية تقتضيها الرّواية بحكم خصوصيتها المنفتحة دوما والقابلة للتطور عبر فضاء اللّغة اللا محدود.

إنّ هذا التعدد الحاصل في أساليب الرّواية وتنوع لغاتها ومستوياتها، نتيجة حتمية للاختلاف الكامن في تركيبة كل شخصية من شخوص الرّواية وإطارها الاجتماعي والثقافي والنفسي والمواقف المتباينة التي تتعرض لها. ولعل ما يجعل (مرتاض) يختلف في تصوره للتعدد عن (باختين)

و(كريستيفا)، هو أنه لا يرى التعدد في اللغات، ولا في اللهجات التي تستخدمها الشخصيات في حواراتها، أو في التعبير عن نفسها، بل يرى التعدد في مستويات الأسلوب في اللغة الواحدة، والتي يجب أن تحافظ على فصاحتها، حيث يرى الوحدة في اللسان، الذي يمثل نظاما علاميا لغويا، ويجيز التعدد في اللغات التي تمثل الاستعمال الواعي لهذا اللسان، كـ (لغة القانون) و(لغة الدين) و(لغة التربية)....

يقودنا الحديث عن تعدد مستويات اللغة داخل الفضاء النصي للسرد في الرواية، حسب (عبد الملك مرتاض)، إلى الحديث عن حضور نصوص خارجية داخل النص الروائي، إن كانت أجناسا أدبية مغايرة متخللة أو كان الأمر متصلا بتعالق النصوص وتواشجها، أو ما يعرف بالتناص وتوظيف التراث، " حيث وظف الروائيون التراث في الأعمال الروائية ولاسيما ما يتصل بالمرجعيات الأساسية في الثقافة العربية كالقرآن، وألف ليلة وليلة، ومقامات الهمذاني، ومعلقة امرئ القيس" (عبد الملك المرتاض، 1998، ص ص 121- 122).

إنّ اللغة الروائية إذن ليست لغة وحيدة، بل هي: " لغة منضدة طبقات، ومتعددة لسانيا بمظهرها الملموس الذي هو دلالي وتعبيري في نظر الغير." (ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ص60) ويكون لذلك التنضيد اللغوي على علاقة وثيقة بلغة الأجناس حيث تشيّد الرواية معمارها اللّغوي اعتمادا على لبنات لغوية عديدة من ضمنها استضافة الأجناس الأدبية الأخرى كالرسالة، والمقال، والقصيدة، وحتى غير الأدبية كالأغنية الشعبية وغيرها، " إنها تتمظهر بألف وجه وتلبس أَلْف رداء، تستعير أدوات الزينة من الأجناس الأخرى ثم لا تلبث أن تستولي عليها، تمارس حبّ التملك، وتجتهد في تطويع غيرها لتستميز وتبدوّ في أبهى حُلة " (قريبع، دت ص06).

إذن فالكتابة السردية بناء لغوي، تتشكل عبره معالم الشخصيات والأحداث والزمان والمكان تحت منظور لغوي وصفي يحدد من خلاله القارئ طريقة السرد ولغته المستعملة لديه.

إلى جانب هذا مستويات الأسلوب الفارقة التي يحدثها السارد، بدافع الشعرية، وشهوة الإغراب والتجاوز، وطلبا للتوسع في الدلالة، وإمتاع المتلقين، واستمالته لهم على المستوى الجمالي، فلابد لأسلوبه في السرد أن يتمايز عن باقي أساليب ومستويات اللغة التي يضمها النص " وقل: اللغة الخاصة التي يصطنعها هو، والتي يحاول في كثير من الأطوار – شأن الكتاب الكبار في العالم – أن يخرجها من المستوى المعجمي الميكانيكي الدلالة، إلى المستوى الانزياحي الذي يتيح له أن يسخر لغته لمعان جديدة كثير تحيي مواتها، وتوسع دلالتها، وذلك بالاضطراب بها في مضطربات بعيدة لا عهد للغة المعجمية بها" (مرتاض، 1998، ص107).

مستويات اللغة الروائية بين الفصحى والعامية:

وقد وقف عبد الملك مرتاض موقف الرافض للعاميّة في لغة الرواية، والذي يشنّ حربا على الداعين لاستعمالها مهما كانت مسوّغاتهم قائلا: " إن الكتابة الروائية عمل فني جميل يقوم على نشاط اللغة الداخلي، ولا شيء يوجد خارج تلك اللغة، وإذا كانت غاية بعض الروائيين العرب المعاصرين هي أن يؤذوا اللغة (ليس بالمفهوم الفنّي، ولكن بالمفهوم الواقعي للإيذاء) بتسويد وجهها، وتلطيخ جلدها، وإهانتها بجعل العامية لها ضرة في الكتابة. فلم يبق للغة العربية إلا أن تزمّ حقائبها، وتمتطي ركائبها، وتمضي على وجهها سائرة في الأرض لعلها أن تصادف كتابا يحبونها من غير بني جلدتها.

وأمام كل هذا، فإننا لا نقبل باتخاذ العامية لغة في كتابة الحوار، ونؤثر أن يُترك للغة الحرية المطلقة لتعمل بنفسها عبر العمل الإبداعي.. فلا واقعي، ولا تاريخ، ولا مجتمع، ولا هم يحزنون.. وإن هي إلا أساطير النقاد الآخرين!" (مرتاض: ، 1998، ص106).

يصر (عبد الملك مرتاض) على النظر إلى الحوارية اللغوية في إطار اللغة الفصحى، ويقاوم بشدة إقحام العامية في المتن الروائي، وان كان الأمر متعلقا بحوار الشخصيات، ويرى أن الأمر يتجاوز واقعية الحوار، ويتجوز كونه تقنية سردية، بل يرى أنه إساءة للغة، ومحاولة للغض منها، بل ويتهكم على الذين يستعملون اللغة العامية من الروائيين، أو الداعين لاستعمالها من النقاد، ويشغل الأمر عند(عبد الملك مرتاض) حيزا كبيرا، ما يشير إلى الحرص والاهتمام البالغ من طرفه على اللغة الفصحى، ويرفض أن يجعل من العامية غريما وندا لها، وينزه الأدب العربي من أن يتضمنا العامية تحت أي طائل.

ويرى أن اللغة الفصحى فيها من الإمكانيات ما يجعلها أكثر واقعية في نقل الحوار، وتعبير الشخصيات عن نفسها، بما تملكه من تعدد في مستوياتها وتفاوت في أساليبها، ما يجعلها في مستغنية عن العامية.

لقد اشتغل (عبد الملك مرتاض) بالبحث في المقومات اللغوية والأسلوبية التي تشكل عالم النص الروائي وتسعى للكشف عن قضايا المتن السردي التي تتعدد بتعدد المنطلقات، وتتنوع بتنوع أساليب اللغة الروائية وطرق التعامل معها. ويذهب عبد الملك مرتاض إلى ضرورة أن تكون لغة السرد فصيحة وحافلة بمستويات لغوية متنوعة في إطار اللغة الفصيحة، ومسوغه لذلك أمران: الأول يتمثل في تعدد الوظائف التي تنهض بها لغة السرد تبعاً لتنوع المواقف والعوالم التي تجسدها والأشخاص ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية. والثاني يتعلق بالراوي الذي تجيء الرواية من خلاله، والذي يحرص على استمالة المتلقين وإمتاعهم، بمستويات الانزياح والعدول، واستغلال إمكانات اللغة بما توفره من تعدد وتفاوت وتجدد.

قائمة المراجع:

أولا – المراجع باللغة العربية:

– احمد عبد الرحمن حماد.(1985)، العلاقة بين اللغة والفكر، دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

– عاصم محمد أمين بني عامر.(2010)، أثر الشفاهية في توجيه الخطاب النقدي، المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر، جامعة اليرموك، عالم الكتب الحديثة، أربد.

– حميد لحميداني.(1989)، أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) منشورات دراسات سميائية أدبية لسانية .

– رولان بارت.(1989)، درجة الصفر للكتابة، تر، محمد برادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، المغرب..

عدنان بن ذريل.(2000)، النص والأسلوبية، بين النظرية والتطبيق، منشورات إتحاد الكتاب العرب.

– فيصل دراج. (2000)، المقال: الكلمة، اللغة، الرواية، مجلة الآداب الأجنبية.

– محمد بوعزة.(2012)، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللغوي والبوليفونية، منشورات اتحاد كتاب المغرب.

– رشيد قريبع. (د.ت)، الرواية الجزائرية المعاصرة وتداخل الأنواع، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قسنطينة.

–عبد الملك مرتاض.(1998)، في نظرية الرواية، ط1، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.

ثانيا – المراجع باللغة الأجنبية:

- Adam chaff.(1967), langage atonnaiss, ance paris anrhropos .